مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

في التسليم النبويّ:

بَلَاغَةُ النَّصِّ، دِرَاسَةٌ فِي لُغَةِ الحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ وَعِلَاقَتُهُ بِالنَّصِّ القُرْآنِيِّ

هناء علي اسماعيل [1]

١ جامعة طرطوس / كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة / قسم اللغة العربية، سوريا؛

Asmaylhna24@gmail.com

دكتوراه في اللُّغة العربيَّة / مدرِّس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤/٦/٢	٢٠٢٤/٧/١٤	٢٠٢٤/١٢/٣١

المجلـــد (٢٠) العـــدد (٣٢)
جُمَادَى الآخرة ١٤٤٦هـ . كَانُون الأوَّل ٢٠٢٤ م

DOI:
10.55568/t.v20i32.35-62

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

تُعدُّ الأحاديث النبويَّة الشريفة الدستور الثاني للمسلمين بعد القرآن الكريم، فقد حملَتْ بيْنَ أعطافها قِيَمَ الإسلام السامية الَّتي استمدَّها الرسولﷺ من القرآن الكريم، وممَّا أوحى به الله سبحانه وتعالى من تعاليمَ لإعداد المسلمين إعداداً يخرجهم من جاهليَّتهم ليتقدَّموا الأمم أجمعين، بحسن سلوكهم ومثلهم العليا، وعلمهم بأمور الدين الذي من شأن صلاحِه أن يقود إلى صلاح دنياهم. ومن هنا كانت للغة الحديث الشريف أهمِّيَّتُها في نقل هذه الرسالة السامية، إذْ لكلِّ مقام مقالٌ، وهي لغة اعتمدت التبسيط والعمق في آنٍ، متكئةً على إمكانات النحو والصرف والبلاغة وسواها في حمل تلك المثل ونقلها إلى المسلمين، بما يحقِّق القصد والغاية التربويَّة التي جاء بها الدين الحنيف على يد رسولنا الكريم مُحَمَّد عليه وعلى آله عاطر الصلاة والسلام.

الكلمات المفتاحيَّة: بلاغةُ النصِّ، لغة الحديْثِ الشَّرِيْفِ، النَّصّ القرآنيِّ.

Text Eloquence: Study on Language of Noble Hadith and its Relationship to Quranic Text

Hana Ali Ismail [1]

1 University of Tartous/ Faculty of Arts and Human Sciences/ Department of Arabic, Syria;

Asmaylhna24@gmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
2/6/2024	14/7/2024	31/12/2024

DOI: 10.55568/t.v20i32.35-62

Volume (**20**) Jumada Alakhirah 1446 AH.
Issue (**32**) December 2024 AD

Abstract:

The noble prophetic hadiths are considered the second constitution for Muslims after Glorious Quran. They embody sublime values of Islam, which the Prophet Muhammad (peace be upon him and his pure progeny) derived from Quran and the divine teachings to prepare Muslims to rise from their state of ignorance and lead all nations with their good conduct, high ideals, and knowledge of religious issues. The piety of these teachings is intended to lead to the betterment of their worldly affairs.

Thus, the language of the noble hadith holds significant importance in conveying this exalted message. Each context has its own appropriate expression, employing a language that holds simplicity and depth. It leverages the potentials of grammar, morphology, and rhetoric to convey these ideals to Muslims effectively, achieving the educational objectives brought by the pure religion through the noble Messenger, Muhammad, may peace and blessings be upon him and his pure progeny.

Keywords: Rhetoric of the Text, Language of the Noble Hadith, Qur'anic Text.

مقدِّمة:

تعـدُّ اللُّغـةُ أداةَ التواصـل الأرقـى التـي خـصَّ بهـا الله سـبحانه وتعـالى البـشر، وفضَّلهـم بهـا عـلى سـائر مخلوقاتـه، ففـي مقابـل الأصـوات والإشـارات لـدى الكائنـات الأخـرى، تتجلَّى اللُّغـة بقدرتهـا الديناميكيَّـة عـلى التواصـل، وعـلى حمـل الفكـر والثقافـة والارتقـاء بالإنسـان[١].

واللُّغـة حمّالـة مسـتويات بلحـاظ مَـنْ تصـدرُ عنـه، ومَـنْ تصـلُ إليـه. وإذا كنّـا نحـن- الدارسـين المعاصريـن- ننظـر إلى مسـتويات اللُّغـة بلحـاظ مسـتويات التلقِّـي ومميّـزات القـارئ، فـإنَّ مـن الإنصـاف القـول بوجـود مثـل هـذا الوعـي اللُّغـوي في تراثنـا العـربيّ الأجـلّ؛ ونقصـد بـه خطـاب الرسـول الأكـرم ﷺ؛ وهـو الدَّاعـي إلى تكليـم النـاس عـلى قـدر عقولهـم، إذ لـكلِّ مقـامٍ مقـالٌ، وهـو مـا تمّـتْ ملاحظتُـهُ في الأحاديـث النبويَّـة الشريفـة الصـادرة عنـه، مـا دفعنـا إلى هـذه الدراسـة.

مُسَوّغاتُ البحث وأهدافُهُ:

يهـدف هـذا البحـث إلى التعريـف بالجانـب الجـماليّ للغـة الأحاديـث الشريفـة التـي حملـت القيـم التربويَّـة الرائـدة للديـن الإسـلاميّ عـلى يـد الرسـول ﷺ، وعلاقتهـا بالقـرآن الكريـم، وإظهـار الوعـي النبـويِّ بأهمِّيَّـة اللُّغـة وقدراتهـا الخلَّاقـة عـلى إيصـال هـذه الرسـالة الدينيَّـة الراقيـة بأرقـى المفـردات والتراكيـب، مـا يجعـل لهـا مكانتهـا المتميَّـزة بـين المأثـور الأدبيّ العـربيّ، الـذي يتجـاوز التلقِّـي الدينـيَّ وحسـب لـدى المسـلمين إلى التلقِّـي العـربيِّ لـدى العـرب أجمعـين ومـن كلِّ الديانـات، ويؤكِّـد عـلى إعجـاز النبـيّ الأمـيّ مـن خـلال امتلاكـه ناصيـة اللُّغـة التـي تدخـل في العمـق والصميـم ويحتـاج دارسـها إلى سـنين طويلـة مـن الجهـد والمتابعـة[٢].

منهج البحث:

يتَّكِـئُ هـذا البحـث عـلى المنهـج التكامـليّ؛ نظـراً لطبيعتـه التـي تراعـي جانبـي الشـكل والمضمون وأثـر كلِّ واحـد منهـما في الآخـر، بـما يحقِّـق الغايـة من الدراسـة.

مقدِّمة نظريَّة في إنتاج اللُّغة وآليَّة التلقِّي:

تُـدرَس اللُّغـة في مسـتوياتها التواصليَّـة والجماليَّـة، وطبيعـة الخطـاب الصـادر تحـدّد منطلـق

١ عياشي، منذر. الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، ط١ (مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢)، ٣٥.
٢ عتيق، عبد العزيز. علم البديع، د.ط. (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.)، ١٣.

الدراسة وأصولها، والخطاب هو: "**كلُّ ملفوظيَّة تفرض متحدِّثاً ومستمعاً، ينوي الأوَّل التأثير في الثاني بطريقة ما**"[٣]، فاللُّغة قصديَّة بشكل أو بآخر، وما من خطاب لغويّ مفرَّغ من رسالة يسعى مرسلها إلى إيصالها إلى جمهور خاصٍّ أو عامٍّ بغية إغنائه بما ليس فيه من جانب، وتغييره وإعادة تشكيل منظومته الفكريَّة والقيميَّة والجماليَّة من جانب آخر، غير أنَّ هذه القصديَّة تتطلَّب أسلوباً خاصًّا تأتي ضرورته من أجل أداء المعنى الذي يحقِّق غرضاً بعينه، ومن أجل الإقناع والتأثير بالقارئ: "**فالطريقةُ التي يُقَالُ بها أمرٌ من الأمور تؤثِّر على كلِّ حال في طريقة فهمه**"[٤].

وقد عُني الدارسون على مرِّ الأزمان بالأسلوب، فأرسطو يحدِّد الخصائص العامَّة للأسلوب: "**الصحّة والوضوح والدقَّة**"[٥]. والوضوح لا يعني الابتذال ولا التقريريَّة ولا المباشرة[٦]، وإنَّما إبانة الشيء وإظهاره، وقد جاء في لسان العرب: "**توضَّح الطريق أي استبان (...) وقد وضح الشيء يضح وضوحاً وضحة واتَّضَحَ أي بانَ وهو واضح ووضّاح وأوضح**"[٧].

وأمَّا عبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١هـ) فقد أشار إلى أهمِّيَّة وصول المعنى إلى مسامع القارئ وبرأيه أنَّ: "**خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك**"[٨]، وإلى ذلك فهو يدعو إلى الوعي بطريقة تقديم الألفاظ في سياقاتها، بمعنى **المواءمة بين اللَّفظ والمعنى** في علاقات اللَّفظ بما يجاوره ضمن التركيب، والغاية من ذلك هي الوضوح أيضاً والإبانة؛ إذ لا قيمة لأيِّ كلام لا يصل معناه إلى القارئ، ولا يؤثِّر فيه، ويبلِّغه الرسالة المرجوَّة من الخطاب، ومن هنا كان من الضروريِّ: "**أنْ يجتهدَ المتكلِّم في ترتيب اللَّفظ، وتهذيبه، وصيانته من كلِّ ما يخلُّ بالدلالة، وعاق دون الإبانة**"[٩]، وهو في ذلك يشترك مع أرسطو، بل يزيد عليه في ضرورة إعمال العقل فيما يكتب، والتأنِّي وأخذ الحذر من كلِّ ما قد يخلُّ بالدلالة؛ فهو يعي مشكلات اللَّبس اللُّغويِّ والتشاكل اللَّفظيِّ، وخطأ استعمال مفردة من دون أخرى في سياق

٣ سيرفوني، جان. الملفوظيّة، ترجمة. قاسم المقداد (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨).
٤ هلال، محمد غنيمي. النقد الأدبي الحديث، ط٥ (مكتبة الأنجلو المصريّة، ١٩٧١)، ١١٦.
٥ هلال، ١١٧.
٦ القعود، عبد الرحمن محمد. "الإبهام في شعر الحداثة،" عالم المعرفة، العدد٢٧٩. ٩ (٢٠٠٢):
٧ ابن منظور، لسان العرب، مادة وضح.
٨ الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة، ترجمة. محمود شاكر (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.)، ٥٩.
٩ الجرجاني، ٦١.

ما، ومن هنا تتجلَّى أهمِّيَّة السياق الذي بوساطته تمكَّن ملاحظة هذا الخلل الذي سيبدو نافراً في حال وُضِعَ في غير محلِّه.

وقد يلجأ **المتكلّم/ الكاتب** إلى أساليب مختلفة، ذلك أنَّ حدود الاستقبال تفرض مستويات معيَّنة من اللُّغة؛ إذ لغة المثقَّف غير لغة العامِّيِّ، ولغة المحارب غير لغة التاجر، ولغة الرجل غير لغة المرأة وسوى ذلك، وهو أمر تنبَّهت إليه الدراسات المعاصرة، خاصَّة أنَّ: **"المتلقِّي عادة يستقبلُ الأمورَ أقلَّ ممَّا هي عليه في الواقع"**[١٠].

والمتلقِّي نفسه مستويات، وهو نفسه ليس على درجةٍ واحدةٍ من التلقِّي بين الحين والآخر؛ إذ يتدخَّل المزاج الشخصيّ، والحال التي يكون عليها في درجة تلقّيه، فقد يختلف الإنسان مع نفسه مرَّة بعد مرَّة أيضاً، طالما أنَّ حواسَّنا- على حدِّ تعبير ديدرو- **" في حال من التقلّبِ الدائِمِ"**[١١].

والواقع أنَّ هذه القصديَّة التي تحدَّثَ عنها أرسطو ما فتئت تتكرَّرُ عبر التاريخ، سواء ما تعلّق منها بالنصوص التقليديَّة أم الحداثيَّة، وبغضّ النظر عن الجانب الذي يبحث فيه صاحبها، وقد يكون النصُّ جماليًّا أو ثقافيًّا أو دينيًّا وما سوى ذلك، غير أنَّها، مع ذلك، تبقى علامة من علامات الأسلوب. يقول فرانسوا مورو: **"يمكن أنْ نجعلَ نقطة انطلاقنا التعارض المعروف بين اللُّغة والكلام، أو التعريف المشهور للأسلوب، من حيث هو انحرافٌ بالقياس إلى نموذج (...) فما يميِّز فعلاً أسلوبيًّا، هو حضورُ قصدٍ ما، وهذا القصد ليس جماليًّا بالضرورة"**[١٢].

ويرى باشلار أنَّ بعض اللُّغة العاديَّة قابلة لخلق إمكانات شعريَّة، وهي نقطة خلاف واضحة مع ما أشار إليه أرسطو فيما سبق، من أنَّ اللُّغة وحدها معيار الأسلبة، وعليها يقوم التمييز بين ما هو واضح أو مبتذل، يقول: **" إنَّ كلَّ الكلمات تقوم بوظيفة شريفة في لغة الحياة اليوميَّة، وحتَّى أكثر الكلمات شيوعاً وعاديَّة، أو تلك التي تدلُّ على أكثر وقائع الحياة اليوميَّة ابتذالاً، لا تفقد إمكاناتها الشعريَّة"**[١٣].

١٠ سباهي، حسين محي الدين. أهم مشكلات النقد الأدبي العدد ٥١٦ (الموقف الأدبي، ٢٠١٤)، ١٠٨.
١١ ديدرو، دوني .بحث في الجميل، ترجمة. علي نجيب إبراهيم، ط١ (طرطوس: أرواد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ٨٧.
١٢ مورو، فرانسوا .الصورة الأدبيّة، ترجمة. علي نجيب إبراهيم (دمشق: دار الينابيع، ١٩٩٥)، ٩٦.
١٣ باشلار، غاستون. جماليات المكان، ترجمة. غالب هلسا، ط٢ (بيروت: المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٤)، ٨٨.

وإذا كان باشلار يُعنَى بالشِّعْرِيَّة في الأدب؛ فالشعريَّة لدى جاكبسون وسواه من اللُّغويِّين هي شيءٌ أعمُّ من ذلك بكثير، ويمكن سحبه على أيّ تمثيل راقٍ لها؛ فما يهمُّ هو ما تستدعيه الألفاظ من معانٍ يتمّ اختيارها على وفق قاعدة (**الائْتِلاف والاختلاف**)، وحسن تمثيلِ الألفاظ للمقاصد المطلوبة منها[١٤].

الحديث الشريف في التلقِّي المُعَاصر:

حرص المخلصونَ من أبناء الأمَّة الإسلاميَّة على جمع الأحاديث النبويَّة الشريفة وتبويبها وقياسها بالقرآن الكريم، وعرضها على أئمَّة الإيمان والبيان والبلاغة لمعرفة الأصل منها من الزائف، ما أوصل إلينا فكر الرسول الكريم وقيمه السامية التي هي تفصيل وتوضيح لما جاء في القرآن الكريم؛ إذ هي لا تتعارض مع قيم القرآن الكريم التي تحضّ على خلق الإنسان المثاليّ بدءاً بالرسول الكريم ﷺ، قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (**القلم:٤**)، وانتقالاً إلى الأمَّة الإسلاميَّة الَّتي حضَّها الله سبحانه وتعالى على الاقتداء بالرسول: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ (**الأحزاب:٢١**). وهكذا فإنَّ قراءة الأحاديث الشريفة تظهر لنا صورة المعلِّمَ الإسلاميَّ الأوَّل في موضع الإرشاد والإجابة على التساؤلات والتفصيل في قضايا تهمّ المسلم في أيَّامه، وفي أيَّامنا هذه.

وفيما يلي مجموعة من الأحاديث النبويَّة الشريفة الَّتي ستتمُّ دراستُها وفق معطيات اللُّغة، ما يعمِّق الوعيَ بالرسالة الإنسانيَّة الَّتي تحملها مفرداتها وتراكيبها وأساليبها، ومنها:

قوله عليه الصلاة والسلام:

١- " من يزرع خيراً يوشك أن يحصد خيراً، ومن يزرع شرًّا يوشكُ أنْ يحصدَ ندامةً، ولكلِّ زارعٍ مثل ما زَرَعَ"[١٥].

٢- سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن علامة الناصح فقال:" أمَّا علامة الناصح فأربعة: يقضي بالحقِّ، ويعطي الحقَّ من نفسه، ويرضى للناس ما يرضاه لنفسه، ولا يَعْتَدِي على أحد"[١٦].

٣- سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن علامة التائب، فقال: أمَّا علامة التائب فأربعة: النصيحةُ لله في عمله،

١٤ وقائع ندوة جهوية، تقدّم اللسانيّات في الأقطار العربية (الرباط: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧)، ١٠٤.
١٥ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٤، ٧٤.
١٦ العلامة المجلسي، ج١، ١٢٠.

وتركُ الباطلِ، ولزومُ الحقِّ، والحرصُ على الخيرِ"[١٧].

٤- قال رسول الله ﷺ: "أمَّا الصيانة للنفس فيتشعَّب منها: الصلاح والتواضع والورع والإنابة والفهم والأدب والإحسان والتحبُّب والخير واجتناء البشر. فهذا ما أصابَ العاقل بالصيانة، فطُوْبَى لمن أكرمَهُ مولاه بالصيانة."[١٨]

٥- عن رسول الله ﷺ:" شرارُ الناسِ مَنْ يبغضُ المؤمنين، وتبغضُهُ قلوبُهُمْ، المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبراء المعايب."[١٩]

٦- عن رسول الله ﷺ: "عليكم بالعفو، فإنَّ العفوَ لا يزيد العبدَ إلَّا عزًّا، فتعافوا يُعِزِّكم اللهُ".[٢٠]

٧- عن رسول الله ﷺ: " أقرب ما يكون العبد إلى الله ﷻ إذا أدخلَ على قلب أخيهِ المؤمن مَسَرَّة".[٢١]

٨- قال رسول الله ﷺ: "يا عليّ ثلاث خصال من مكارم الأخلاق: " تعطي من حَرَمَك، وتصل من قطعك، وتعفو عمَّن ظلمك".[٢٢]

٩- قال رسول الله ﷺ: " يا عليّ سيِّد الأعمال ثلاث: إنصافك الناس منْ نفسِكَ، ومواساتُكَ الأخِ في الله ﷻ، وذكرك الله تبارك وتعالى على كلّ حال".[٢٣]

١٠- قال رسول الله ﷺ: " يا أبا ذر من كان له قميصان فليلبس أحدهما وليلبس الآخر أخاه".[٢٤]

١١- قال رسول الله ﷺ: " ألا أخبركم بخير رجالكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: إنَّ من خير رجالكم: التقيّ، النقيّ، السمح الكفَّين، النقيّ الطرفين، البرّ بوالديه، ولا يلجئ عياله إلى غيره".[٢٥]

١٢- قال رسول الله ﷺ: سيّد الأعمال إنصاف الناس من نفسك، ومواساة الأخ في الله، وذكر الله عزَّ وجلَّ على كلِّ حال".[٢٦]

---

١٧ العلامة المجلسي، ج١، ١٢٠.
١٨ الحراني، ابن شعبة. تحف العقول، ١٧.
١٩ المازندراني، مولي محمد صالح. شرح أصول الكافي ج١٠، ٣١.
٢٠ الريشهري، محمد .ميزان الحكمة، ج٣، ٢٠١٣.
٢١ النوري، الميرزا. مستدرك الوسائل، ج١٢، ٣٩٨.
٢٢ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٤، ٦٢.
٢٣ العلامة المجلسي، ج٧٢، ٢٧.
٢٤ العلامة المجلسي، ج٧٤، ٩٠.
٢٥ العسقلاني، ابن حجر. تهذيب التهذيب ج٧، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤)، ص٤٠٠، ضمن الحديث الطويل ١٥٩٧.
٢٦ الكليني، الكافي- ط الإسلاميَّة ج٢، (د.ت.)، ١٤٥.

١٣ قال رسول الله ﷺ إنَّ أسرع الخير ثوابًا البرّ، وأسرع الشرّ عقوبة البغي، وكفى بالمرء عمىً أن يبصر".[٢٧]

الأبعاد الدلاليَّة للغة الحديث الشريف:

تدرس الأسلوبيّة مستويات عدَّة لأيِّ كلام منها: المستوى الصوتيّ والمستوى التركيبيّ والمستوى الدلاليّ والمستوى البلاغيّ، وسيحاول هذا البحث مقاربة جوانب منها قد تتداخل فيما بينها لغاية الباحثة من بحثها، وعليه ستتمّ الدراسة وفق معطيات الجوانب: النحويَّة والصرفيَّة والبلاغيَّة ما يظهر مستوى خطاب الرسول ﷺ ومستويات السامعين/ القرَّاء أيضاً.

- المستوى النحويّ:

تمكن في هذا المستوى دراسة بعض الجوانب اللَّافتة في حديثه عليه الصلاة والسلام، ومنها أسلوب الشرط، ودلالته، وعلاقته بأركان الجملة الشرطيَّة في مستوياتها المختلفة، مثلما يُلحظ التركيز على الجمل الإسميَّة، ومن الفعليَّة على الفعل المضارع وأساليب العطف ودلالات حروف العطف وسواها. ومن هنا ستعتمد الباحثة في بعض المفارق من هذه الدراسة ما يعرف **بالإحصاء اللُّغوي**[٢٨]؛ ومنها دراسة التكرار والشيوع للصيغ النحويَّة والصرفيَّة والألفاظ وغيرها ممَّا درسته اللِّسانيَّات المعاصرة، وقد تبدو في ظاهرها نافرة للقارئ، غير أنَّ الحاجة إلى مزيد من توضيح جانب الخطاب النَّبويِّ وأبعاده التربويَّة قد تطلَّب منَّا ذلك، علمًا أنَّه لا يمكن فصل المقولات النقديَّة ولا المناهج عن بعضها انفصالاً تامًّا، وهو ما كان وراء هذا الخيار لدينا؛ ففي الحديث الشريف الأوَّل نجد كيف يحضُّ الرسول الكريم على فعل الخير واجتناب الشرّ، بما يوحي بضرورة السباق على عمل الخير، ما يتوافق مع الآية الكريمة: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾. **(آل عمران: ٣٣)** وإذا كان الربط مع الآية الكريمة غير واضح بشكل مباشر إلَّا أنَّه مدرج بشكل ضمنيٍّ فيها، إذ الشرط يؤدِّي دور ربط الأسباب بالنتائج؛ فمن يزرع خيرًا يجده، ومن يزرع شرًّا يجده، وكأنَّنا أمام الآية الكريمة أيضاً: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن**

٢٧ الأصول، قراءة جديدة في تراثنا الشعري، ط١ (دار الحقائق، ١٩٩٣)، ١٥٦.
٢٨ وقائع ندوة جهوية، تقدّم اللسانيّات في الأقطار العربية، ٢٣٩.

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، فأعمال الإنسان بانتظاره، وكلّ ثواب أو عقاب من جنس عمله: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾- **(المدثّر:٣٨)**. فتعاليم الرسول لا تخرج عن تعاليم القرآن، بل هي تعيدها بصورة مبسّطة للمسلمين ممَّن يرجون رضا الله ورسوله، ولْنلحظ قوله عليه الصلاة والسلام:

" ومَنْ يزرع خيراً يوشك أن يحصد خيراً، ومن يزرع شرًّا يوشك أن يحصد ندامة، ولكلِّ زارع مثل ما زرع"

وإذا كان الشرط كما أسلفنا ربط الأسباب بالنتائج، فإنَّه لا بدَّ من التدقيق قليلاً في بعض الألفاظ الواردة في الحديث الشريف السابق، مثل كلمة **(يوشكُ)**، وهي كلمة تقوم زمنيّاً على الفعل المضارع، وصرفيًّا على البناء الناقص للأفعال، ودلاليًّا هي من أفعال المقاربة الَّتي تدلُّ على اقتراب وقوع الخبر. والسؤال الَّذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا لم يرد في جواب الشرط الفعل **(يحصد)** مباشرة بدلاً من يوشك؟ ولماذا استبدلت اللَّفظة **المُتَوَقَّعَة بغير المتوقَّعة**، واستحضرت **مواطن الشكّ بدلاً من مواطن اليقين؟** (فمَنْ يزرعْ يَحْصِد)، هذه هي القاعدة العامَّة للَّغة المتداولة المتعارف عليها، غير أنَّنا هنا أمام انزياح واضح عن مألوف اللُّغة، ونقصد هنا الانزياح اللَّفظي. ومن المعروف أنَّ الأسلوبيَّة المعاصرة وعت دور هذا الانزياح[٢٩ ٣٠]، ودرسَتْ من خلاله الألفاظ والتراكيب في مستوياتها المعجميَّة والصرفيَّة والنحويَّة، وتحدَّثت عمَّا يسمَّى **(فجوة التوتُّر أو الإدهاش أو مسافة التوتُّر)**[٣١] التي تخرج بالسامع أو القارئ عن ألفة التلقِّي إلى فضاء آخر مختلف، يعمل على هزِّ قناعاته ومدركاته بغية منحه دفقة جماليَّة ودلاليَّة أعمق وأوسع وأشمل. وإذا كنَّا لا نقف كثيراً عند البعد الجماليّ لقصد الرسول الأكرم ﷺ، نظراً لأنَّ الجماليّ لم يكن مطروحاً كمقولة من مقولات الكلام في عهده[٣٢]، ولأنَّ الجماليَّة عامَّة (علم الجمال) بمفهومه الواسع قديماً، ومنذ أيَّام أرسطو وأفلاطون- العالم القديم عمومًا- ربط كلِّ ما هو جميل بما هو خيّر؛ فالبعد الأخلاقيّ والقيميّ، والتربية الأخلاقيَّة أساس التعاليم

٢٩ آلن هاو، النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت، ترجمة ثائر ديب (دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٥)، ٢٠٧.
٣٠ إيغلتون، تيري. نظرية الأدب، ترجمة. ثائر ديب (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥)، ١٣٩.
٣١ أبو ديب، كمال. في الشعرية، ط١ (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، د.ت.)، ١٦.
٣٢ الأصول، قراءة جديدة في تراثنا الشعري، ٦٨.

القديمة، فكيف هي الحال مع سيِّد الأخلاق وأبلغ القيم رسول الله ﷺ، ومن هنا لا بدَّ من تتبّع المعنى والغاية من وراء هذا **الانزياح** الَّذي – بلا شكّ- جاء مقصوداً، وعن وعي كبير بإمكانات اللَّفظة في خلق الدلالات المرجوَّة منها، والَّتي تختلف عمَّا هو متداول وشائع في لغة الناس، ما يمكن أن يضعنا أمام تأويلات عدَّة نظنُّ منها ضرورة الاجتهاد في ما يزرع، فليس كلُّ زرع كالآخر، فعلى كلِّ مسلم ومسلمة الوعي بما يزرع، أو أنَّه بمجرِّد أن زرع سيقترب من حصاده، ذلك أنَّ بين الزراعة والحصاد فترة زمنيَّة ليست قليلة، لكنَّها هنا تبدو قريبة جدّاً، فحصادُ المؤمنِ نتائج عمله سريعة قريبة توشك أن تكون بين يديه. واستتباع الشرط هنا بتكرار معنويّ قائم على الجملة الإسميَّة يفيد الثبات والاستقرار، وهي أقرب إلى الآية الكريمة: (**كلّ نفسٍ بما كسبت رهينة**) (**المدثر: ٣٨**)، فالجزاء من جنس العمل، ومن هنا كانت الدعوة والحضّ بطريقة غير مباشرة لبذل خير ما في الرعيَّة الإسلاميَّة من خير. وتبدو **اللُّغة المغرَّبة الانزياحيَّة** في الحديث السابق أيضاً من خلال الجملة الشرطيَّة الثانية، إذ خبر جملة الجواب (**أن يحصد ندامة**) لا شرًّا، وبقياس هذا الخبر بالسابق عليه (**أن يحصد خيراً**) نلحظ أنَّ جزاء الخير من جنسه، أمَّا جزاء الشرِّ فهو أقلّ منه، فجزاء الخيرِ الخيرُ، وجزاء الشرِّ الندامةُ، وكلاهما يعود على فاعله لا على غيره؛ فالخير الَّذي يعود على الفرد جزاء عمله الخيرَ يعود أيضاً على الأمَّة الإسلاميَّة، أمَّا جزاء الشرِّ الصادر عنه فيطاله وحده، وليس على المستوى الخارجيّ وحسب، وإنَّما على الباطن النفسيّ (**الندامة**)، فتغريب هذه اللَّفظة عمّق الوعي بالدلالة ووسّع أمداءها، وفي هذا دخول في العالم الباطن لمرتكب الشرّ الَّذي يعي فداحة ما ارتكب، ولعلَّ نفسه تكون أوّل من يدرك خطيئته، وهي التي تقوم بحسابه وتبكيته لخطأ ما اختار، وهي عادة حال العصاة والكفّار والمنافقين ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا**﴾. (**الفرقان:٢٧**)، فالندم نهاية من خالف الله ورسوله يوم لا ينفع الندم، ولا تنفع العودةُ صاحبَها بعد فوات الأوان، ولعلّنا في هذا السياق نتذكَّر قوله تعالى في قصَّة ابنَي آدم عليه السلام، كيف أنَّ الظالم منهما الَّذي قتل أخاه كان من الخاسرين أوّلاً وبعد رؤيته الغراب الَّذي عن طريقه عرف كيف يواري سوءة أخيه أصبح من النادمين ثانياً

وأخيراً، فأسوأ عقاب يطال المرء هو العقاب الَّذي تنزله به نفسُه، وهو مجال علم النفس وليس مجالنا هنا التوسّع أكثر فيه.

ويؤدِّي التكرار في الحديث الشريف دوراً في التأكيد على قِيَم الخير من خلال تكرار كلمة (**خيراً**) والحضّ على خير الزراعة من خلال الجذر اللُّغوي (**زرع**)، على حين لا تتكرّر كلمة (**شرّ**) بل تستبدل بالندامة، ما يؤكِّد التوجُّه الإيجابي والتفاؤل بالرعيَّة الإسلاميَّة في الحديث الشريف.

وأمَّا في الأحاديث الشريفة الثانية والثالثة والرابعة فنلحظ أنَّها أجوبة على أسئلة المسلمين، وفي هذا إشارة إلى الحوار الإسلاميِّ ودوره في الارتقاء بالعقل العربيِّ المسلم، وهي لكونها أجوبة اعتمدت الشرط القائم على التفصيل بلحاظ الأداة (**أمّا**)، **وهي حرف شرط وتفصيل وتوكيد**[٣٣]، ومنها لا بدَّ من ملاحظة تقسيم الجمل- بما يعادل التفصيل- إلى أربعة جمل في الحديثين الثاني والثالث، وإلى عشرة بما يعادل الوصايا العشر في الكتب السماويَّة. والتفصيل قام على جمل خبريَّة قصيرة، منها ما اعتمد الفعل المضارع بما فيه من استمرار وتجدُّد: (**يقضي، ويعطي، ويرضى، ولا يعتدي**)، وفي الوقت نفسه اعتمد التكرار كتكرار الصيغة الصرفيَّة (يفعل) مع (**يقضي، يعطي**)، والفعل كما هو (**يرضى**) والمصدر (**الحقّ**) ما يدلُّ على الرغبة في تأكيد قيم الالتزام بالحقّ، وقياس الناس بأنفسنا:

" سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن علامة الناصح فقال: أمَّا علامة الناصح فأربعة: يقضي بالحقّ، ويعطي الحقّ من نفسه، ويرضى للناس ما يرضاه لنفسه، ولا يعتدي على أحد".

وأمَّا في الحديث الثالث الخاصّ بعلامة التائب الذي جاء ردّاً على سؤال موجَّه له ﷺ، فيعود الشرط والتفصيل والتوكيد في أربع جمل هي مجمل الحديث النبويّ الشريف، فالشرط ربط الأسباب بالنتائج، والتفصيل وضّح القصد بزيادة الأمثلة والتوكيد الذي تؤدِّيه الأداة أمَّا:

" سُئِلَ النبيّ ﷺ عن علامة التائب فقال: أمَّا علامة التائب فأربعة: النصيحة لله في عمله، وترك الباطل، ولزوم الحقّ، والحرص على الخير".

٣٣ عبد الحميد، محي الدين. شرح ابن عقيل المجلد ٢، ط١٥ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٢)، ٣٩٠.

وممَّا يُلحظ في الحديث السابق توسُّل الرسولِ ﷺ التعبير عن علامات التائب عبر المصدر: **"النصيحة، وترك، ولزوم، والحرص)**، بما يفيدهُ هذا المصدر **من الإطلاق والثبات** باعتبار إسميّته أيضاً[٣٤].

ويعمد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الشرط والتفصيل والتوكيد أيضاً في موضع تعليم أبناء الأمَّة الإسلاميَّة وإرشادهم ونصحهم لما فيه صلاحهم وقربهم من الله سبحانه وتعالى، وحصولهم على رضاه ﷻ، وفي هذا تفصيل أوسع يصل تقسيمه إلى عشر كلمات متتابعة مترابطة بالعطف عبر **(الواو)** التي تفيد الجمع بين المتعاطفين دون التقيّد بترتيب زمنيٍّ، ما يشير إلى أنَّ ما يهمّ هو القيام بهذه العبادات، ولا يهمّ أيُّها يقع أوّلاً، فممارسة أيٍّ منها يوصل إلى النتيجة المرجوّة، وهي صيانة النفس عن الهوى والضلال:

قال رسول الله ﷺ: **"أمَّا الصيانة للنفس فيتشعّب منها: الصلاحُ والتواضعُ والورعُ والإنابةُ والفهمُ والأدبُ والإحسانُ والتحبّبُ والخيرُ واجتناءُ البشرِ"**.

ولعلَّ من الواضح للقارئ كيف جاء تقسيم الجواب قائماً على العطف المفرد المتكرِّر، فكلُّ معطوف يقوم على كلمة واحدة إسميَّة من حيث نوع الكلمة، ومقيّدة بـ(أل) التعريف ما يفيد التحديد والتقييد والمصدريَّة الَّتي تفيد الإطلاق كما سبق وذكرنا. وبالتدقيق بالألفاظ السابقة **الدَّالَّة بنفسها**[٣٥] بنفسها لا بدَّ من ملاحظة ماله علاقة بالجانب الاجتماعيّ في الألفاظ: **"التواضع، التحبُّب، اجتناء البشر"**، وهي مفردات تشير إشارة واضحة إلى البعد الاجتماعي الَّذي يسعى النبيُّ ﷺ إلى بناء الإنسان فيه، بما يشدّ لحمة المجتمع بعضها إلى بعض، وبما يجعل المجتمع متماسكًا بقوّة؛ فتواضع الإنسان لأخيه سبيل إلى كسب مودَّته ومحبَّته، و(التحبُّب) هو تأكيد على نتيجة الأولى (التواضع)؛ فالعلاقات الاجتماعيَّة لا تقوم على مشاعر باردة آليَّة، وإنَّما على مشاعر عاطفيَّة قوامها (المحبَّة)، فالمحبَّة تغفر الأخطاء والزلَّات والعَثَرات الصادرة عن الآخرين، ولا تكاد ترى تلك الأخطاء – كما هو معلوم في الدراسات النفسيَّة- إذ الدوافع العدوانيَّة في المجتمعات عموماً وفي الأفراد خصوصًا غالبًا

٣٤ عبد الحميد، ٩٣_ ٩٤.

٣٥ إبراهيم، علي نجيب. جماليات اللفظة بحثاً عن طريقة لقراءة النص الأدبي القديم، ط١ (دمشق: دار كنعان، د.ت.)، ٩_ ١٥.

ما يكون وراءها الإحساس بانعدام الحبّ[٣٦]؛ فالحبّ يؤلِّف قلوب الناس بعضها إلى بعض، وهو ما يفضي إلى (اجتناء البشر)، وكأنَّهم قطاف اجتهد الإنسان فيه للحصول على الآخر- الإنسان مثله، وهو ما يفيده وزن المصدر اجتناء/ افتعال: الاجتهاد والتكلّف.

وإذا تضمَّنت الألفاظ السابقة أبعاداً اجتماعيَّة لغاية خلق مجتمع مثاليّ للمسلمين، فإنَّ منها ما يتعلَّق بالجانب الدينيّ- العلاقة مع الله سبحانه وتعالى عبر: **(الورع، والإنابة، والخير)**، فالورعُ من صفات المؤمنين الَّذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى، وأمَّا الإنابة فهي من صفات أتقى الأتقياء ونقصد بهم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، ولعلَّ من نافل التذكُّر ذكر الآية الكريمة في خليل الله سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام:" **إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب" (هود: ٧٥)**، فالإنابة: العودة إلى الله كغاية ما يتمنّى المؤمن وخير نهاية له هي علامة من علامات القرب من الله ﷻ، ومن هنا كان لزاماً اقتران الورع والإنابة بالخير، إذ لا أهمِّيَّة لشعور أو قول أو إحساس خارج العمل الصالح، وهو تصديق لقوله تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ **(فاطر:١٠)**، وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ **(الصف:٢-٣)**. وكلا الآيتين الكريمتين تتحدّث عن علاقة المؤمن بالله ﷻ؛ فالغاية، هنا، أخرويَّة لا دنيويَّة، وهي الأهمّ من الأولى، لأنَّ إرضاء الله غاية كلِّ مؤمن، وهي بدورها كفيلة بأن تخلق مجتمعاً مثاليًّا، فما من مؤمن ولا مؤمنة يفعل ما يخالف الله ورسوله، قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ **(الأحزاب:٣٦)**، وإلى ذلك تمكن ملاحظة **الجانب العقليّ** الذي يراعيه الرسول ﷺ في خطابه، إذ من أسس الصلاح أيضاً وما يتشعَّب عنه: **"الفهم والأدب والإحسان"**، وهي جوانب عقليَّة تراعي الفطرة الصحيحة ونظافة الوعاء العقليِّ المتأدِّب الَّذي يسمو بنفسه فوق الانفعالات البشريَّة الطبيعيَّة، فالفهم الصحيح يفضي إلى سلوك صحيح، وخير السلوك الإحسان والتسامي على رغبتنا في تحقّق ما هو عادل بالنسبة لنا، فالعدل حقّ كلِّ إنسان، والإحسان فوق العدل، إنَّه درجة من الحكمة العقليَّة الَّتي لا تردّ الإساءة بالمثل، بل على العكس من ذلك تسمو فوقها، وتتطلَّع عبر

٣٦ إبراهام، كارل. التحليل النفسي والثقافة ‘مجموعة علم الإنسان، ترجمة. وجيه أسعد (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨)، ٢٦٨.

محاكمة عقليَّة صحيحة إلى التجاوز الذي يفضي إلى نتائج أكثر إرضاءٍ لله وللنفس وللمجتمع؛ فالله يحبُّ المحسنين: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (**آل عمران: ١٣٤**). وقد يتبادر إلى القارئ السؤال: ما شأن الإحسان بالعقل والفكر؟ غير أنَّ الجواب يأتي انطلاقاً من قوله تعالى:﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ**﴾(**النور: ٢٢**)، وهو خطاب يقوم على الجدل العقليّ والبرهان القائم على القياس، فكما أنَّنا نحن- الخاطئين- نرجو غفران الله ونحن لا نستحقّ، فكذلك لا بدَّ من غفران خطيئات الآخرين، وإن كانوا لا يستحقون. وهو قياس يخضع – بلا شكّ- للمحاكمة العقليَّة الَّتي ترقى بالنفس الإنسانيَّة إلى أحسن ما تتمنّى، وهو بلوغ الصلاح. وبالعودة إلى ما سبق لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ المعطوف عليه (الصلاح) قد تفرَّع بدوره إلى ثلاثة شعب، كلُّ شعبة منها ثلاثيَّة الألفاظ، وهذا **التقسيم الرقميّ** يناسب العقل العربيّ أو التلقيّ الجدليّ للبرهان العقليّ الَّذي عادة ما يكون تأكيده بالعدد ثلاثة. ولنلحظ كيف ختم الرسول ﷺ الحديث الشريف السابق بقوله: "**فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة، فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصيانة**"، وهو ما يعيدنا إلى مفهوم البرهان العقليّ والمحاكمة الصحيحة التي تقتضي متلقّيًا عاقلاً، فطرته سليمة، ومحاكمته صحيحة كذلك. ومن امتلك هذا العقل كرّمه الله بالصيانة عن كلِّ زلَّة واجتباه ليكون من عباده المخلصين ونفوسه المطمئنّة بإذنه.

المستوى الصرفيّ: المصادر والصيغ الاشتقاقيّة ودورها في تركيب الجملة الإسميَّة الخبريَّة:

حظي الاشتقاق باهتمام اللُّغويِّيْنَ العرب منذ وقت مبكر لاتِّصاله بأصول الكلمات معنى وتركيبًا ورغبة في زيادة الثروة اللُّغويَّة من خلال "**التوليد الصَّرفيّ**"[٣٧]. وقد كثر في الأحاديث المدروسة الَّتي بين أيدينا استعمال الصيغ الاشتقاقيَّة، وفي مقدِّمتها صيغة اسم التفضيل. واسم التفضيل يُصَاغُ من المصدر للدلالة على أنَّ شيئين اشتركا في صفة واحدة فزاد أحدهما على الآخر في تلك الصفة، وهو يدلُّ على استعظام هذه الصفة لدى فريق دون الآخر. وبين أيدينا وفرة من هذه الصيغة الاشتقاقيَّة الَّتي برزت بصيغة الإفراد: (**أقرب، وخير، وسيِّد، وأسرع**)، وبصيغة الجمع (**شِرَار**)، كما أنَّ من الصيغ الصرفيَّة الأخرى: مبالغة اسم الفاعل

٣٧ قدور، أحمد محمد .مدخل إلى فقه اللغة العربية، ط٣ (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣)، ٢٠٢_ ٢٠٥.

(**المشاؤون**)، والصفة المشبَّهة: "**التقيّ، والنقيّ، والسمح، والبرّ...**"، واسم الفاعل (**المفرِّقون، والباغون، وزارع...**). وبقراءة الأحاديث الشريفة وقوفاً على هذه الصيغ، وبحثاً في دلالاتها تمكن ملاحظة إقران رسول الله ﷺ لهذه الصيغ مع بعضها بعضًا ضمن الحديث الواحد، ما يشيرُ إلى كونها مكمِّلَةً لبعضها، أو أنَّ لا غنى لواحدة منها عن الأخرى، إذ جاء في حديثه ﷺ: "**شِرَارُ الناسِ مَنْ يبغضُ المؤمنين وتبغضُهُ قلوبهم المشّاؤون بالنميمة المفرِّقون بينَ الأحبَّةِ الباغونَ للبراءِ المعايبِ**".

ورد اسم التفضيل بصيغة الجمع (شرار)، جمع (شرّ) من (أشرّ) الوزن الأصليّ قبل التخفيف، ثمَّ جاء قوله (من يبغض المؤمنين- تبغضه) بصيغة الإفراد مع الفعل المضارع الَّذي يفيد استمراريَّة البغض بين الطرفين، بغض شرِّ الناس للمؤمنين، وبغض قلوب المؤمنين له، لكن السؤال: لماذا تمَّت الإشارة إليه بصيغة الجمع أوّلاً ثُمَّ العودة إلى الإفراد. قد يقول دارس: ممَّا هو شائع في اللُّغة استعمال الكلمة المفردة للدلالة على الجمع في جنسٍ بعينه كقوله تعالى:﴿**وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ (**النساء:٢٨**) وقوله ﷻ: ﴿**قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾(**عبس: ١٧**). ومن البديهيِّ أنَّ هذا الكلام لا يعود على إنسان واحد بعينه، و إنَّما على الجنس البشريّ كلِّه. لكن (شرار) وهاء الغائب المفردة في (تبغضه) لا تعود على جنس دون آخر، وإنَّما تعود على من تُنسب إليه هذه الصفة من بين الجنس الإنسانيّ، ومؤكَّد أنَّ المقصود به جماعة الأشرار من الناس لا شرِّيرًا واحدًا، لكنَّ النظرة هنا إلى الاستعمال اللُّغويّ أيضاً **الخارج على مألوف اللُّغة**، وهو ما يجعل غلطة فرد واحد بمنزلة جماعة، فأسوأ الناس وأشرُّهم هو من يُبغض المؤمنين، لأنَّ في بُغض المؤمن أذًى له وشرٌّ، فبُغض المؤمن يفوق أيَّ شرٍّ لأنَّه اعتداء على القيم التي يمثِّلها ذلك المؤمن، ومن ثَمَّ اعتداء على الدين نفسه، وعلى نظام المجتمع المثالي الَّذي يطمح الإسلام- الدين الجديد إلى إرسائه في أرض الجزيرة العربيَّة أوّلاً، وفي البلاد الأخرى ثانياً وثالثًا. إذاً مُبغض واحد للمؤمنين هو جماعة كاملة، يحمل فيها الشرِّير أوزاره وأوزار غيره ممَّن اشتركوا معه في هذه الصيغة أو ممَّن دفعوه إليها. هذا الواحد الَّذي من جهة ثانية هو الجماعة نفسها، بمعنى أنَّ **الكلمة تحمل معنى مزدوجاً**:

إفراد يوحي بالمبالغة وتضخيم إثمِ من يسيء إلى مؤمن، وجماعة للإشارة إلى الأمر الواقع، وهو وجود مثل هذه الفئة بكثرة في المراحل الأولى للدعوة الإسلاميَّة. ودليل ذلك استتباع الحديث بقوله ﷺ: **"المشّاؤون، المفرِّقون، الباغون"**، بصيغة الجمع الصريحة، فهؤلاء هم شرُّ الناس وأسوؤهم. ولنلحظ المبالغة أيضاً في صيغة الاسم المشتقّ **(المشّاؤون)**، بلحاظ الصيغة الصرفيَّة- مبالغة اسم الفاعل الَّتي تفيد المبالغة والإكثار من القيام بالفعل، فإذا عرفنا أنَّ هذه المشتقَّات تفيد ثبات الصفات على أصحابها[٣٨] عرفنا كيف أنَّ فئة من الناس تبالغ في النميمة، وتمشي إليها بكثرة، وتعمل على شيوعها في المجتمع الإسلاميّ، وهؤلاء هم أنفسهم المفرِّقون بين الأحبَّة، الباغُون لإلصاق المعايب بالبريئين منها. ونلحظ هنا كيف جاء استعمال اسمَي الفاعل: (المفرِّقون) من الفعل فوق الثلاثيّ، و(الباغُون) من الفعل الثلاثيّ من دون تضخيم للأمر أو مبالغة فيه، كما كانت الحال مع المشتقَّين السابقين:(اسم التفضيل، ومبالغة اسم الفاعل)، فاسم الفاعل يدلُّ صرفيًّا على من قام بالفعل وحسب، لا يفضِّل شيئًا على شيء، ولا يبالغ في شيء، وهو أمر لا جدال فيه، فلماذا لم يعطف الرسول عبر **الحذف**- حذف حرف العطف- الواضح للعطف في الصيغة السابقة نفسها، كقوله: الفرَّاقون بين الناس، البغَّاؤون للمعايب.....إلخ. إنَّ قراءة متأنِّية لكلِّ الخطاب اللُّغويّ في الحديث الشريف يظهر كيف أنَّ هذه النسبة إليهم هي أمر واقع، فهؤلاء هم حقًّا من يسيئون إلى المؤمنين، والإشارة إليهم- المبالغ فيها- صارت أمراً واقعاً مفهوماً من السياق السابق، فلا داعي لمبالغات أخرى تسيء جماليًّا إلى وقع اللُّغة الَّتي بدورها تسيء إلى استقبال القارئ أو السامع لها، ثُمَّ إنَّ بُغض المؤمنين والمشي بالنميمة أسوأ ما يرتكبه إنسان، وهو بمنزلة السبب وما بعده بمنزلة النتيجة، فالبُغض يدفع المبغِض إلى شتَّى أنواع العدوانيَّة تجاه الآخر، والنميمة تُفضي إلى خلق الكراهيَّة بين الناس وتفتيت لُحمة المجتمع، وإبعاد المسلم عن المسلم، والأخ عن أخيه، والجار عن جاره، ولعلَّها أسوأ سلوك يمشي به الإنسان، وهو ممَّا كرَّه به الله سبحانه وتعالى ونفَّر منه وأشار إليه بأبشع الصور، قوله تعالى:﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ **(الحجرات:١٢)**. صورة من أقسى الصور التي

٣٨ عبد الحميد، شرح ابن عقيل المجلد ٢، ١٠٦.

تنفِّر من الغيبة والنميمة، فكم هو شنيع أكلُ الإنسانِ لحمَ أخيه الميت! ومن هنا لا نستغرب لجوء الرسول الأكرم ﷺ إلى استعمال صيغة مبالغة اسم الفاعل في الإشارة إليها، على حين أنَّ التفريق بين الناس جاء نتيجة واضحة لها، وكذلك الاتِّهامات الظالمة الباطلة. ويستعمل الرسول ﷺ صيغة اسم التفضيل في غير موضع من الأحاديث النبويَّة الشريفة، ومنها أيضاً ما يأتي: **"أقرب ما يكون العبد إلى الله ﷻ إذا أدخل على قلب أخيه المؤمن مسرَّة"** وقوله: **"ألا أخبركم بخير رجالكم؟" قلنا: بلى يا رسول الله، قال: إنَّ من خير رجالكم التقيّ، النقيّ، السمح الكفّين، النقيّ الطرفين، البرّ بوالديه، ولا يلجئ عياله إلى غيره"** وقوله: **"سيّد الأعمال إنصافك الناس مِنْ نفْسِكَ..."** وقوله: **"إنَّ أسرعَ الخيرِ ثواباً البرُّ، وأسرعَ الشرّ عقوبةً البغيُ، وكفى بالمرء عمًى أنْ يبصر"**

ولنلحظ هذه الصيغ المكرَّرة: (أقرب، خير، سيّد، أسرع)، وبعضها تكرَّر في الحديث نفسه غير مرَّة ما يفيد التوكيد عليه، وهي صيغ جاءت في موضع الإرشاد؛ ففي الأوَّل يفضِّل المؤمن الَّذي يمدُّ يد العون والمسرَّة إلى قلب أخيه المؤمن على كلِّ مؤمن آخر، فإدخال المسرَّة على قلوب المؤمنين سبيل إلى كفِّ الأذى والابتعاد عن الشرور والآثام، وفي ذلك كلَّه تقوية لِلُحمة المجتمع، وإن لم يصرِّح الحديث الشريف بذلك. ويكفي أن نعيد التأمُّل في آيات القرآن الكريم لنجدَ كيف يتوافق هذا الحديث الشريف مع مجمل ما جاء فيه، فالدعوة إلى الإنفاق والعفو والتسامح في القرآن الكريم تظهر بكثرة في سورهِ وآياتهِ بعد التأكيد على وحدانيَّة الله سبحانه وتعالى والتحذير من الشرك به، ما يفضي بالفعل إلى إدخال المسرَّة إلى قلوب الضعفاء والفقراء والمحتاجين، وفي ذلك تقرُّب من الله ﷻ وإرضاء له، قوله تعالى: **﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:٩٢)**. والنفقة خير ما يقدِّمه المسلم لاسترضاء أخيه المسلم، علماً أنَّ الصدقة ليست حكراً على إنفاق الأموال فالكلمة الطيِّبة صدقة: **قال تعالى: (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) (البقرة:٢٦٣)**. ومن هنا كان الحرص على شدِّ لُحمة المجتمع الإسلاميّ بالمحبَّة والعلاقة السويَّة الطيِّبة القائمة على قيم العطاء والاحترام المتبادل والرحمة والإحسان وسواها. وهو ما يفضِّله الله سبحانه

وتعالى على غيره من الأوامر. ولنلحظ كيف أنَّ رضا الله سبحانه وتعالى والتقرُّب منه هو ممَّا له علاقة بصالح العباد وسعادتهم، وليس فيما يخصُّ الله نفسه جلَّ وتعالى، ما يشير إلى حبِّه سبحانه وتعالى عبادَه ورغبته في الصلاح لصالح البشر أنفسهم، والله نفسه: ﴿**وكان الله شاكراً عليماً**﴾ (**النساء:١٤٧**)، ثُمَّ ننتقل إلى الحديث اللَّاحق فنلحظ أنَّ خير الرجال وأفضلهم عند الله – وهي صيغة مكرَّرة كتركيب مرَّة بصورة إنشائيَّة وثانية بصورة خبريَّة: "**ألا أخبركم بخير رجالكم؟**" "**إنَّ من خير رجالكم**"- من امتلك صفات التقوى والنقاء والكرم وغضَّ البصر والبرّ بالوالدين والشفقة على العيال والقيام بمسؤوليَّاتهم. وهي صفات تقوم صرفيًّا على صيغة الصفة المشبَّهة باسم الفاعل؛ هذه الصيغة الَّتي تدلُّ على ثبات الصفة على ما تحيل عليه، فالمطلوب تقوى دائمة، ونقاء دائم وبرّ وشعور بالمسؤوليَّة دائمين، صفات ثابتة ولا رجعة عنها، وهي صفات إن توافرت في أصحابها فُضِّلوا على غيرهم، ولنلحظ هنا كيف جمع الرسول ﷺ الإرشاد على مستوى المجتمع بالإرشاد على مستوى العائلة، ومن المعروف أنَّ صلاح الفرد صلاح للمجتمع، والأسرة عماد المجتمع، إن صلحت شكَّلت لبنة قويَّة داعمة لصلاحه، وإذ نقف على واجبات ربِّ الأسرة نلحظ كيف تمَّت الإشارة إلى مسؤوليَّته كأب: "**ولا يلجئ عياله إلى غيره**"، فإنجاب الأولاد مسؤوليَّة مُلْقَاةٌ على عاتق الآباء والأمهات، وليس عقد الزواج قائماً على العلاقة بين الزوج وزوجته وحسب، وإنَّما هو بناء أسرة متماسكة مثاليَّة؛ لأنَّ أيَّ تقصير في حقِّ الأولاد يفضي إلى نتائج وخيمة، وهي الحال الَّتي نراها اليوم في المجتمعات المفكَّكة أسريًّا، حيث ظواهر الإنجاب غير الشرعيّ، والأولاد المنحرفين عن جادَّة الصواب نحو الشذوذ والجريمة وسواهما/ المجتمع الغربي أنموذجًا. والخطاب هنا بالتأكيد لمن لديه الاستطاعة في ذلك، وليس المقصود به الحالات الاستثنائيَّة كوفاة الأب أو الفقر الشديد، ذلك أنَّ النبيَّ نفسه رُبِّيَ في حجر عمِّه، وقام بتكفُّل ابن عمِّه سيِّد الكلام والبلاغة الإمام عليٍّ عليه السلام وتربيته، فتلك ظروف استثنائيَّة مرَّ بها المجتمع العربيّ قبل الإسلام، لكنَّ الإسلام القائم على العدالة الاجتماعيَّة وعلى رأب الصدوع المادِّيَّة، وعلى خلق نظام اقتصاديّ يتكفَّل بحلِّ معظم المشكلات من خلال نظام الزكاة وإنشاء بيت مال المسلمين، مع حفظ الكرامات، كلُّ ذلك

لا يترك سبباً لمعيل أن يقصِّر بواجباته تجاه عياله، ومن هنا تقوى لُحمة الأسرة، ما يعود بالنفع على المجتمع نفسه. هذا فيما يخصُّ واجب الأب تجاه أبنائه، غير أنَّنا نجد قبله الواجب تجاه الوالدين: **"البرّ بوالديه"**، وهو من القيم المُثلى الَّتي حضَّ عليها الإسلام، إذ قرن الله سبحانه وتعالى عبادته ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما: ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا** ﴾ (**الإسراء: ٢٣-٢٥**). فالبرُّ بالوالدين شرط من شروط التقرُّب الأكبر إلى الله سبحانه وتعالى، وخير الناس البارّ بوالديه، والبرّ يراعي ضعف الوالدين وحاجتهما إلى الأبناء، فالمسؤوليَّة متبادلة، وذات شكلٍّ دائريٍّ تبدأ مع ضعف الأبناء وقوَّة الآباء، وتنتهي مع ضعف الآباء وقوَّة الأبناء. ورغم أنَّ الحديث الشريف لا يفصِّل فيها إلَّا أنَّ الإحالة إلى الآيات الكريمة والقياس بها يظهر بعض الفجوات في العلاقة بين هرم الأسرة وقواعدها، كما يلمح إلى ظاهرة عقوق الأبناء آباءهم عن قصد و ظلم وعن غير قصد وجهل، والله هو الأعلم بما في نفوس عباده، إن كان الخطأ مقصودًا أم غير ذلك أم هو خطأ استمرَّ به صاحبه أم عاد إليه. ولنلحظ كيف قدَّم الرسول ﷺ صفات التقوى والنقاء والسماحة على تنظيم العلاقة الأسريَّة، ذلك أنَّ انتظامها ومثاليَّتها مشروطان بتوفُّر هذه الصفات، فمن لم يكن نقيًّا سمحاً معطاءً غالباً ما ينحرف عن الطريق الصحيحة، ويتصرَّف بما فيه صالحه الخاصّ لا صالح الأسرة والجماعة معاً.

و يؤدِّي التقسيم دوره في معاضدة الشيفرة اللُّغويَّة للحديث الشريف، إذ في التقسيم نفسه إشارات إلى التراتبيَّة في الأشياء الَّتي يحضُّ عليها ﷺ، ذلك أنَّ تركيزنا على أشياء دون أخرى هو بحدِّ ذاته تفضيل لها على غيرها، وإن لم يكن بشكله اللُّغويِّ/ النَّحويِّ أو الصرفيِّ، ومن ذلك كثرة الإشارة إلى **الرقم ثلاثة**، في إرشاده عليه الصلاة والسلام وفي نصائحه، ومنها:

"قال رسول الله ﷺ: يا عليُّ ثلاث خصال من مكارم الأخلاق: تعطي مَنْ حَرَمَكَ، وتصلُ مَنْ قطعك، وتعفو عمَّن ظلمك"، وقوله ﷺ: **"يا عليُّ سيِّد الأعمال ثلاث: إنصافُكَ الناس مِنْ نفْسِكَ، ومواساتك الأخ في الله عزّ وجلّ، وذكرُكَ الله تبارك وتعالى على كلِّ حالٍ"**، وقوله ﷺ من غير تصريح بالرقم ثلاثة: **"إنَّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وأسرع الشرّ عقوبة البغي، وكفى بالمرء عمى أن يبصر"**.

المستوى البلاغيّ/ (الخبر والإنشاء):

الخبر:

اتَّكأت الأحاديث المدروسة على الجمل الخبريَّة إلَّا قليلاً، والخبر ثلاثة أنواع: خبر ابتدائيّ، وخبر طلبيّ، وخبر إنكاريّ. ورغم أنَّ الخبر كلام غايته الإخبار بواقع أو علم غير معروف لدى الآخر/ السامع- القارئ، فهو كلام يحتمل التصديق أو التكذيب. والأخبار على أرض الواقع تحتمل اختلاط الصحيح بالمكذوب. وبقراءة أحاديثه عليه الصلاة والسلام-النماذج المختارة للدراسة- نجد أنَّ معظمها يندرج تحت النوع الأوَّل/ الابتدائيّ، خلا ثلاثة أحاديث ورد الخبر في اثنين منها كجواب على السؤال/ الإنشاء:

"قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير رجالكم؟! قلنا: بلى يا رسول الله، قال: إنَّ خير رجالكم: التقيّ، النقيّ، السمح الكفّين، النقيّ الطرفين، البرّ بوالديه، ولا يلجئ عياله إلى غيره"

وقوله ﷺ: **"إنَّ أسرع الخير ثوابًا البرّ، وأسرع الشرّ عقوبة البغي، وكفى بالمرء عمى أن يبصر"**

وقوله ﷺ: **" عليكم بالعفو، فإنَّ العفو لا يزيدُ العبدَ إلَّا عزًّا، فتعافُوا يعزِّكم الله"**.

وأحاديث الرسول ﷺ القائمة على الخبر غير المؤكَّد- القابل للتصديق أو التكذيب بلاغيّاً على مستوى لغة العرب- تحرف هذا الأسلوب عن دلالته، **إذ يشكّل مصدر الكلام ميزاناً للتحقُّق لا الكلام نفسه**، بمعنى أنَّ كلام الرسول ﷺ ليس موضع شكٍّ ولا اختبار، ومن هنا نعود إلى مفهوم الانزياح والتغريب في اللُّغة، لكن ليس على مستوى اللَّفظة، وإنَّما على مستوى تناول بلاغيّ درج اعتماده في لغتنا. ولعلَّنا في مثل هذا الموضع نراجع بعضًا من الطروحات اللُّغويَّة والبلاغيَّة السابقة الَّتي تحتاج إلى إعادة نظر؛ فالتصديق والتكذيب

يكونـان في الحـالات العامَّـة لا الخاصَّـة الاسـتثنائيَّة، وهنـا يدخـل دور الحامـل/ مصـدر الـكلام ليطبـع اللُّغـة بطابعـه، والبلاغـة في إحـدى تجلِّياتهـا الدلاليَّـة بـما يمنحهـا مـا ليـس منهـا في الأصـل. أضـف إلى ذلـك أنَّ الخـبر الطلبـيّ الـوارد باعتبـار **الأداة إنَّ** في الأحاديـث الثلاثـة السـابقة قـد جـاء متجـاوراً مـع الإنشـاء الطلبـيّ/ الاسـتفهام والأمـر، وفي موقـع الـكلام الحـيِّ المبـاشر أمـام جمهـور/ رعيَّـة تسـأل وتنتظـر جوابًـا، وهـذا مـا أشـارت إليـه **كاف الخطـاب** المفـردة والجمعيَّـة بالتجـاور مـع الميـم الدَّالَّـة عـلى جماعـة العقـلاء. والتوكيـد جـاء في أثـر الإنشـاء، وهـو في ظاهـره توكيـد للجملـة الإسـميَّة، وفي باطنـه هـو توكيـد عـلى دعـوة الرعيَّـة للالتـزام بهـذه القيـم، قيـم التقـى والـورع والعفـو وسـواها. فالمتكلِّـم/ رسـول الله ﷺ يراعـي مقتـضى الحـال، ومقتـضى الحـال أنَّ ثمَّـة رعيَّـة تحتـاج إلى تثبيـت دينهـا ومثلهـا العليـا وقيمهـا، وهـي مـن تحتـاج إلى توكيـد المثـل الَّتـي تحملهـا اللُّغـة في ذاتهـا، وليسـت اللُّغـة ومـا فيهـا مـن معـانٍ هـي مـا يحتـاج التوكيـد. ولعلَّنـا هنـا نعـود إلى رأي الجرجـانيّ- مـا أوردنـاه سـابقاً في هـذه الدراسـة- مـن أنَّ: **"خـيرَ الـكلامِ مـا كان معنـاهُ إلى قلبـك أسـبق منـه إلى سـمعك"**. فالمعنـى للقلـب، وليسـت اللُّغـة سـوى حمَّالـة معـانٍ، ومـا يهـمُّ ليس الشـكل الَّـذي تقـدّم بـه المعـاني في هـذه اللُّغـة، بقـدر أهمِّيَّـة الأثـر الَّـذي تنتجـه عـبر وظيفتهـا التواصليَّـة والإيصاليَّـة والشـيفرات الَّتـي تحملهـا، الَّتـي تتعلَّـق درجتهـا بدرجـة المسـتقبل/ المتلقِّـي الَّـذي تصـل إليـه. ومـن هنـا، تمكـن ملاحظـة غلبـة الجمـل الإسـميَّة عـلى الفعليَّـة؛ إذ هـي تؤكِّـد ثبـات هـذه القيـم التـي يحـضُّ عليهـا الرسـول ﷺ واسـتقرارها.

الإنشاء:

ينـدرج الإنشـاء الـوارد في الأحاديـث الشريفـة السـابقة ضمـن النـوع الطلبـيّ، بصيغـه النـداء والأمـر والاسـتفهام، وأمَّـا **النـداء** فقـد أدَّى دوراً في الإشـارة إلى **مسـتوى المخاطـب- الجمهـور** الَّـذي يتوجَّـه إليـهِ الرسـولُ ﷺ، وقـد بـرز بقـراءة الأحاديـث الشريفـة مسـتويان: (خـاصّ- عـامّ) مـن حيـث البنيـة الفكريَّـة للمخاطـب، و(فـرد- جماعـة) مـن حيـث التوجُّـه إلى إعـداد قـادة المسـلمين ورموزهـم وإعـداد الرعيـة أيضـاً. ففـي حديثـه المفـرد الخـاصّ نجـد علمـين مهمّـين مـن أعـلام الأمَّـة الإسـلاميَّة غنيّـين عـن التعريـف، وهمـا **الإمـام عـليّ** عليه السلام، ابـن عـمّ الرسـول

ﷺ، وربيبه، والفدائيّ الأوَّل في الإسلام، وأوَّل من آمن به من الذكور، والخليفة الرابع للمسلمين، والثاني هو **أبو ذرّ الغفاريّ** شهيد العدالة الاجتماعيَّة الَّتي غابت في ظلِّ الحكم الجائر بعد الخلافة الراشديَّة. وفي قوله عليه الصلاة والسلام للإمام عليّ عليه السلام: **"يا عليّ ثلاث خصال من مكارم الأخلاق: تُعطي مَنْ حرمَكَ، وتصلُ مَنْ قَطَعَك، وتعفو عمّن ظلمك"**، وقوله أيضاً: **"يا عليّ سيِّد الأعمال ثلاث: إنصافُكَ الناس مِنْ نفسِكَ، ومواساتك الأخ في الله عزّ وجلّ، وذكرك الله تعالى على كلِّ حال"**.

وفي هذين الحديثين نجد التوجُّه إلى إعداد الشخصيَّة القياديَّة المسلمة القائمة على العدل والإنصاف ومكارم الأخلاق، ومنها مقابلة الإساءة بالإحسان، وهو ما يتوافق مع قوله تعالى: **"والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين"**، فالإحسان بالعفو والتسامي على ردَّات الفعل السلبيَّة كفيل بتأليف قلوب المسلمين بعضهم لبعض، والأمَّة قبل الإسلام كانت في حالة حرب وتنافر، وعلى المستوى الاجتماعيّ كان ثمَّة أشكال من الممارسات الَّتي تعمل معاً على توسيع الهوَّة بين الناس. والإسلام الَّذي ألَّف بين قلوب المسلمين- الممزَّقين في عداواتهم الأبرز بين الأوس والخزرج وسواها على يد الرسول بقيمه المستمدَّة من القرآن الكريم- يسعى أيضاً إلى استمرار هذه القيم، وخير من يجسِّدها رموز الأمَّة الإسلاميَّة بلحاظهم القدوة الصالحة لكلِّ مسلم ومسلمة، ومن هنا كان العطاء مقابل الحرمان، وصلة من قطع، والعفو عن الظالم، وإنصاف الناس ومواساتهم، والأهمُّ من ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى، لأنَّ ذكر الله يطبع في قلوب المؤمنين الخشية منه التزاماً بأوامره واجتناباً لنواهيه. ولنلحظ كيف تتَّضح الشخصيَّة القياديَّة للإمام عليّ عليه السلام من خلال خطاب الرسول ﷺ: **"إنصافك الناس من نفسك، ومواساتك الأخ في الله عزّ وجلّ"**، فالمصدر المضاف إلى فاعله، العامل عمل فعله، يظهر هذا الموقع القياديّ، لأنَّ الإنصاف يأتي من الأعلى إلى الأدنى، من الحاكم إلى المحكوم، والقائد إلى المقود، وأمَّا المواساة فهي تقوم على المفاعلة/ المشاركة، ما يقرِّب الأطراف بعضها من بعض، فتشتدّ لُحمة المجتمع بالتآلف والتأليف للقلوب بين الحاكم والمحكوم، ومن كان بموقع القوَّة والأمر مع الَّذي بموقع الضعف والانقياد، وهو ما ينسجم

مع سيرة الإمام عليّ عليه السلام الَّذي أعطى الناس وأنصفهم وساواهم بنفسه، بل فضَّلهم عليه. ولعلَّنا نذكر رسالته البتراء إلى ابن حنيف عامله على مصر الَّذي يظهر فيه زهده وإعراضه عن الدنيا، ورفقه بحال المسلمين الفقراء، ورفضه مبدأ الكيل بمكيالين. هذه الخطبة الَّتي تعبِّر عن صدق الحدس النبويّ الشريف، وصحَّة اختيار المخاطب ودقَّته، وإعداده الإعداد اللازم لبناء أمَّة إسلاميَّة مثاليَّة. وأمَّا المخاطب الخاصّ الثاني فهو أبو ذر الغفاريّ، فقد جاء في حديثه صلى الله عليه وآله ما يأتي: **"يا أبا ذرّ من كان له قميصان فليلبس أحدهما وليلبس الآخر آخاه"**. والحديث- كما هو واضح- يحضُّ على الإيثار، أو الإحساس بالآخر، وبالمعنى المعاصر، يحضّ على البناء الاشتراكيّ للمجتمع؛ عن الابتعاد عن الأثرة والفرديَّة والأنانيَّة، والتزام قيم الغيريَّة والإحساس بالآخر، وهي أهمّ مبادئ العدالة الاجتماعيَّة، والنوازع الاشتراكيَّة الَّتي سقط أبو ذرّ الغفاريّ شهيد رسالتها السامية. ولنلحظ كيف اعتمد الحديث الشريف ضمير الغائب بعد المخاطب ما ينقل مستوى الخطاب من الخاصّ إلى العامّ، والأكيد على ذلك، والحضّ عليه عبر جواب الشرط القائم على أسلوب الأمر (الفعل المضارع المسبوق بلام الأمر: فليلبس). وأمَّا الخطاب العامّ/ الجماعي فهو خطاب لا يتوجَّه إلى جمهور بعينه، يتحدَّد بأسماء لأعلام، وإنَّما هو خطاب أمَّة بأكملها: **"عليكم بالعفو، فإنَّ العفو لا يزيد العبد إلَّا عزًّا، فتعافوا يعزَّكم الله"**. وإذا كان الإنشاء الطلبيّ هنا يتجاوز النداء المباشر إلى صيغة الأمر فإنَّه ضمنيًّا يتحدَّد عبر كاف الخطاب الَّتي تفترض وجود من نخاطبه، ويُلحظ هذا التوجُّه الجماعيّ للخطاب عبر الميم الدَّالَّة على جماعة الذكور العقلاء، ذلك أنَّ الخطاب لم يحدَّد مخاطبًا بعينه، وإنَّما فهم من خلال ضمير المخاطب الكاف وصيغة الأمر- كما أسلفنا- الَّتي تفترضُ مخاطبًا ضمنيًّا، قامت بالدلالة عليه عبر الشكل الرابع لصيغ الأمر ونقصد بذلك اسم فعل الأمر **"عليكم"**، وهو منقول عن شبه جملة (جار ومجرور). ولو أعدنا بناء الجملة إلى سابق عهدها لكانت على الشكل الآتي: (**العفو عليكم**)، ولكانت درجة تحميل المسؤوليَّة أقلّ، وليس فيها من القوَّة ما في تقديم شبه الجملة على المبتدأ (**عليكم العفو**) ما يدلُّ على أهمِّيَّة التوجُّه إلى المخاطب والبدء به، وإعداده للسماع قبل نقل أيَّة رسالة، ومن ثُمَّ

يأتي انزياح التركيب (شبه الجملة) من موقع التابع بوصفه خبراً للمبتدأ إلى موقع الصدارة بوصفه اسماً للفعل من خلال إدخال الباء على (العفو)، وتحميل شبه الجملة سابقاً، واسم فعل الأمر لاحقاً قوَّة تعبيريَّة فيها من التوجيه والخطاب والتأكيد ما فيه حرص الرسول ﷺ على خلق مجتمع مثاليّ يتخلَّص فيه المسلمون من نظامهم الاجتماعي السابق القائم على التنافر والتناحر والأخذ بالثأر وسرعة الغضب وسوى ذلك من المشاعر السلبيَّة الهدَّامة للنفس أوَّلًا وللمجتمع ثانيًا؛ **فالعفو تسامٍ وقوَّة** لا ضعف. وقد أدَّى تكرار الجذر اللُّغويّ (عفو) ثلاث مرَّات دور التأكيد على هذه القيمة الَّتي تشكِّل مفتاح النقلة النوعيَّة للمجتمع الإسلاميّ من مجتمع التناحر والتنافس والتعصُّب القبليّ (قبل الإسلام) إلى مجتمع التحابب والتآلف والتوحُّد (بعد الإسلام): **"العفو، العفو، تعافوا"**. ولنلحظ كيف قرن الرسول ﷺ العفو بالعزَّة في جملتين إسميَّة وفعليَّة فيهما سبب ونتيجة: **"فإنَّ العفو لا يزيد العبد إلَّا عزًّا" "فتعافوا يعزّكم الله"**.

والخطاب العامّ، المتوجِّه إلى جمهور أوسع، يراعي مستوى المتخاطبين- كما هو واضح- ويلامس أخصّ ما يميِّز التركيب النفسيّ للعربيّ آنذاك وهو العزَّة، فالعربيّ معتزّ بنفسه: **"أخذته العزَّة بالإثم"** وفي الشعر العربيّ إشارة لذلك، قول البحتريّ: **"وعزَّة كليبيَّة أعيا الرجال خضوعها"**، فالعزَّة والأنفة العربيَّة قبل الإسلام كانت أكثر من أن تعدَّ وتحصى، وكانت سبباً لرفض الدعوة في بدايتها، والتعالي على المسلمين، ومن هنا تبدو إعادة بناء الشخصيَّة الإنسانيَّة على يد الرسول ﷺ بإعادة بناء منظومتها القيميَّة انطلاقاً من مفاتحها الخاصَّة، ومراعاة جوانبها العقليَّة والمنطقيَّة وميلها إلى التفاخر والاستعلاء، فقد صارت العزَّة بعد الإسلام امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، وهي في العفو والتقرُّب من الآخر؛ لأنَّ العفو يؤدِّي إلى شيوع المشاعر الإيجابيَّة بين أفراد المجتمع الإسلاميّ، ومن أحببناه جرينا مجراه دونما عناء يذكر، وهو ما يحقِّق مستوى من الوعي البنّاء لمجتمع تمزَّق وتفتَّت قبل إنقاذه على يد الرسول ﷺ، وبالدين الحنيف الَّذي جاء به.

الصورة الفنيَّة ودورها في تعميق القيم الإسلاميَّة في حديث الرسول ﷺ:

يغلب الخطاب المباشر في حديث الرسول ﷺ إلى المسلمين أفراداً وجماعاتٍ، غير أنَّ هذا لم يمنع من ظهور الصورة الفنيَّة في بعض الأحاديث النبويَّة الشريفة، وقد جاءت عفويَّة غير متكلَّفة وفي معرض ضرب الأمثال الَّتي كانت طريقة من طرائقه عليه الصلاة والسلام لتوضيح الغرض والغاية من حديثه لجمهور المسلمين، ومن ذلك توظيف الاستعارة القائمة على التشخيص مرَّة وعلى التجسيد مرَّة أخرى، في حديث واحد، الغاية منه ترغيب المسلمين بعمل الخير، تلك الصورة القائمة على مثال حسِّيٍّ اقتصاديٍّ من أرض الواقع؛ فعمل الخير أو الشرّ أشبه ما يكون بغرسة، وبحسب ما تغرس تحصد. والمؤمن أو الكافر كلاهما زارع، وأمَّا الخير أو الشرّ فهما غرستان، كلّ واحدة منهما تقدِّم لصاحبها ثمار ما زرع، وهي صورة تقرّب المعنى إلى أذهان المسلمين، وتوضِّح الغرض بأبسط طريقة، فالجزاء- كما ذكرنا سابقاً- من جنس العمل، والكلام المباشر قد يصل إلى السامع ويوضِّح القصد، لكن اللُّجوء إلى التصوير يعمِّق الوعي به، عبر إشراك الحواسّ بشكل ضمنيّ أيضاً، عبر فعل التخييل الَّذي يوسِّع مدى المعنى في ذهن متلقِّيه، وهو ضرب من ضروب بلاغة التعبير عموماً. وإذا كان اللُّجوء إلى التشخيص أو التجسيد، في الاستعمال الصوريّ لبلاغة الرسول ﷺ، فإنَّ من التصوير وبلاغته ما هو أعمق وأكثر تحفيزاً لخيال المؤمنين، كقوله ﷺ في شرار الناس: "**المشّاؤون بالنميمة**"، وهي صورة لا يكاد يبين وجهها للسامع مباشرة، وقد تكون ممَّا درج على ألسنة الناس وألفوها، إلى درجة تمنع من ملاحظة الجانب التصويريّ فيها، الجانب الَّذي يميل إلى **التغريب** أيضاً. ومن المعروف أنَّ الباء تفيد الوساطة، ما يستدعي السؤال الآتي: ماذا تشكِّل النميمة بالنسبة لمن يمشي بها؟ وهل هي بمنزلة الخفّ للقدمين أم شيء من وساطات المشي الكثير الَّذي يقوم به هؤلاء الأشرار؟ فهي وساطة بشكل أو بآخر، وعلى هذه الحال نشعر بشيء من التماهي بينها وبين صاحبها؛ فالنمَّام هو أسوأ الناس، وهو الصفة بحدِّ ذاتها، إذا ما شئنا الاتِّكاء على مفهوم المجاز المرسل (تماهي الشيء بسببه أو نتيجته)، وليس غريباً أن يشير الله سبحانه وتعالى إلى قبح هذا السلوك بالآية الكريمة القائمة على التصوير الحسِّيِّ

أيضاً، الَّذي فيه عن تقبيح الفعل ما فيه: **"أيحبُّ أحدكم أن يأكَل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه"**، فالتشبيه الضمنيّ في القرآن الكريم يعمِّق الوعي بقبح هذا الخلق، ما يخلق فعل التنفير لدى المؤمنين، وكذلك الحال إذا ما نظرنا إلى دلالة التماهي بين النَّمَّام وفعله، وما تؤدِّي إليه من تنفير أيضاً عبر تقبيح هذا الفعل في عيون المسلمين.

ومن الأحاديث الشريفة ما تقوم على **الكناية** السهلة الواضحة، إن كان عبر تركيب بسيط **(السمح الكفّين)**: دليل الكرم، و**(النقيّ الطرفين)**: دليل العفّة، أو القائمة على جملة مكتملة **(لا يُلْجِئُ عيالَهُ إلى غيرِهِ)**: دليل الشعور بالمسؤوليَّة، وبناء أسرة متماسكة صحيحة تكون عماداً لبناء مجتمع سليم، ومثلها قول الرسول الأكرم لأبي ذرّ ﷺ: **"من كان له قميصان فليلبس أحدهما وليلبس الآخر أخاهُ"**: كناية عن التكافل الاجتماعيّ، وضرورة مدِّ المسلم يدَ العون إلى أخيه المسلم، وهو ما يذكِّرنا بقوله تعالى في الأنصار أهل المدينة حين وفد إليهم المهاجرون: **(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ)** (الحشر:٩). فالقيم الإسلاميَّة العظيمة تبدو جليَّة في هذه التعاليم، وقد أدَّى التصوير دوره في تعميقها.

المحسِّنات البديعيَّة:

مثلما جاء التصوير لطيفًا عفويًّا رشيقًا في الأحاديث النبويَّة الشريفة كذلك جاءت المحسِّنات البديعيَّة، بتجانساتها وتقابلاتها[٣٩]، لتؤدِّي الغاية التعليميَّة والتربويَّة الَّتي يسعى من خلالها الرسول ﷺ إلى النهوض بالأمَّة الإسلاميَّة، عبر التحبيب بفعل الخير والتنفير من الشرّ والآثام. ومن التقابلات الَّتي تظهر سموّ الأخلاق الَّتي يحرص الرسول ﷺ على أن تتمثَّلها أمَّته هو حديثه إلى سيِّد البلاغة الإمام عليّ ؑ بقوله: **"تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمَّن ظلمك"**، ومنها: **"لزوم الحقّ وترك الباطل"**، وأيضاً: **"كفى بالمرء عمىً أن يبصر"**. فالطباق في الجزء الأوَّل من الحديث الشريف يظهر كيف هي الشخصيَّة الإسلاميَّة السويَّة، الشخصيَّة الَّتي تقابل الإساءة ليس فقط بعدم الردِّ عليها، أو الصبر على ظلمها وقسوتها، وإنَّما بالإحسان إليها، ومدّ يد العون والمبادرة لكلِّ ما فيه صالحها، وفي ذلك مفارقة كبيرة تظهر أثر التعاليم الإسلاميَّة الَّتي شكَّلت ثورة حقيقيَّة على الواقع الاجتماعيّ والثقافة الَّتي كانت سائدة من

٣٩ عتيق، عبد العزيز. علم البديع (بيروت – لبنان: دار النهضة العربية، د.ت)، ٧٦_ ١٩٦.

قبل كما أدَّت المقابلة الَّتي من شأنها تحقيق المبالغة[٤٠] في قوله:(**لزوم الحقّ وترك الباطل**) دوراً في توضيح أهمِّيَّة الترغيب بعمل الخير والتنفير من عمل الشرور، فلزوم الحقّ وترك الباطل هي علامات التائب الَّتي أشار إليها الرسول ﷺ في معرض حديثه الوارد سابقاً، وكفى بالتائبين ثواباً عند الله: "**جنَّة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**"، هؤلاء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، في معرض حديثه جلَّ وتعالى عن الخاطئين العائدين عن خطئهم، المعترفين بذنوبهم، والَّذين لم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون.

وأمّا التجانس اللَّفظيُّ[٤١] فقد ورد مؤكِّداً بالتكرار: (**يقضي/ يعطي**) في قوله ﷺ: "**يقضي بالحقّ ويعطي الحقّ**"، وفي هذا الإيقاع الموسيقيّ للتركيبين دوره في معاضدة الدلالة وتعميقها أيضاً، خاصَّة أنَّ الحديث الشريف يستتبع ما فيه تكرار وتوكيد أيضاً: "**ويرضى للناس ما يرضاه لنفسه**".

الخاتمة:

ممَّا تقدَّم نستنتج:

شكّلت الأحاديث النبويَّة صورة لُغويَّة مصغَّرة رديفة لإعجاز القرآن الكريم اللُّغويّ، فهي رغم بساطتها في الظاهر من حيث تركيب الجمل والفقرات قد عبّرت عن وعي عميق باللُّغة وإمكاناتها المهمَّة وقدرتها على إيصال المعنى والقصد للمسلمين، كما عبَّرت عن دراية باختيار اللَّفظ ووضعه في سياقه المناسب لأداء المعنى ومناسبته للقصد والغاية، فضلًا عن الوعي بالأساليب النحويَّة كإمكانات الشرط والجمل الإسميَّة والأفعال والعطف وإمكانات الصَّرْفِ والبلاغةِ في إيصال هذه الرِّسَالة إلى المسلمين، ما يحقِّق للخطاب النبويّ وللغته الموقع المتميّز الَّذي لا يقلّ شأناً عن لغة الأدب الَّتي كان يعتدّ بها العرب قبل الإسلام، ويشكِّل جاذباً رديفاً لأسماعهم وقلوبهم في آن معاً.

٤٠ عتيق، علم البديع، د.ت. ٨٧.
٤١ عتيق، ١٩٥_١٩٦.

المصادر.

القرآن الكريم
آلن هاو. النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت. ترجمة ثائر ديب. دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٥.
أبو ديب، كمال. في الشعرية. ط١. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، د.ت.
إبراهام، كارل. التحليل النفسي والثقافة ‘مجموعة علم الإنسان. ترجمة وجيه أسعد. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨.
إبراهيم، علي نجيب. جماليات اللفظة بحثاً عن طريقة لقراءة النص الأدبي القديم. ط١. دمشق: دار كنعان، د.ت.
ابن منظور،. لسان العرب، د.ت.
إيغلتون، تيري. نظرية الأدب. ترجمة ثائر ديب. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥.
الأصول، قراءة جديدة في تراثنا الشعري. ط١. دار الحقائق، ١٩٩٣.
الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة. تحقيق محمود شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.
الحراني، ابن شعبة. تحف العقول، د.ت.
الربشهري، مُحَمَّد. ميزان الحكمة. ج٣.، د.ت.
العسقلاني، ابن حجر. تهذيب التهذيب ج٧. ط١. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤.
العلامة المجلسي. بحار الأنوار، د.ت.
القعود، عبد الرحمن مُحَمَّد. "الإبهام في شعر الحداثة." عالم المعرفة، العدد. (٢٠٠٢). ٢٧٩
الكليني. الكافي- ط الإسلامية. ج٢، د.ت.
المازندراني، مولي مُحَمَّد صالح. شرح أصول الكافي. ج١٠، د.ت.
النوري، الميرزا. مستدرك الوسائل. ج١٢.، د.ت.
باشلار، غاستون. جماليات المكان. ترجمة غالب هلسا. ط٢. بيروت: المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٤.
ديدرو، دوني. بحث في الجميل. ترجمة علي نجيب إبراهيم. ط١. طرطوس: أرواد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧.
سباهي، حسين محي الدين. أهم مشكلات النقد الأدبي العدد ٥١٦. الموقف الأدبي، ٢٠١٤.
سيرفوني، جان. الملفوظيّة. ترجمة قاسم المقداد. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨.
عبد الحميد، محي الدين. شرح ابن عقيل المجلد ٢. ط١٥. بيروت: دار الفكر، ١٩٧٢.
عتيق، عبد العزيز. علم البديع. د.ط. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.
عياشي، منذر. الأسلوبيّة وتحليل الخطاب. ط١. مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢.
قدور، أحمد مُحَمَّد. مدخل إلى فقه اللغة العربية. ط٣. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣.
مورو، فرانسوا. الصورة الأدبيّة. ترجمة علي نجيب إبراهيم. دمشق: دار الينابيع، ١٩٩٥.
هلال، مُحَمَّد غنيمي. النقد الأدبي الحديث. ط٥. مكتبة الأنجلو المصريّة، ١٩٧١.
وقائع ندوة جهوية. تقدّم اللسانيّات في الأقطار العربية. الرباط: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧.